مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 377-392

ملامح الحضارة في فكر مالك بن نبي

Features of Civilization in the Thought of Malik Bennabi

نزهة حنون*

[1] جامعة أم البواقي (الجزائر).

البريد الالكتروني المهني: Hanoun.Nouzha@univ-oeb.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/01/25	2022/03/26	2022/04/16

الملخص: يهدف هذا البحث إلى معرفة ملامح الحضارة في فكر مالك بن نبي، إذ تعد المسألة الحضارية من أهم المسائل التي شغلت أفكاره، فقد انطلق في مؤلفاته المتعددة من وحدة تحليل أساسية هي "الحضارة "، باعتبار أن مشكلة كل شعب في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، وقد ناقشها من زوايا عدة من حيث جوهرها ومبدئها ومن حيث وحدتها وعلاقتها بمنتوجاتها، وتركيبها ووظيفتها، ويرى أن الحضارة لها مظهران، يتضمن المظهر الأول شروطها المعنوية في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهامها الاجتماعية، أما المظهر الثاني فإنه يتمثل في شروطها المادية في صورة المكان.

فما هي ملامح الحضارة في فكر مالك بن نبي؟ وما هي الدورة الحضارية لديه؟.

الكلمات المفتاحية: *الحضارة ؛ مالك بن نبي.*

Abstract: This research paper aims to know the features of civilization in the thought of Malik Bennabi, as the civilizational issue is one of the most important issues that occupied his thoughts. A people can understand or solve its problem unless it delves into the understanding of the factors that build civilizations or destroy them, and has discussed them from several angles in terms of their essence and principle and in terms of their unity and their relationship to their products, structure and function, and sees that civilization has two aspects, the first aspect includes its moral conditions in the form of The will to move society towards defining its social tasks. As for the second aspect, it is represented in its material conditions in the image of the place.What are the features of civilization in the thought of Malik bin Nabi? What is his civilization cycle?

Keywords: *civilization ; Malik Bennabi .*

* **المؤلف المرسل**

مقدمة:

مالك بن نبي عالج مشكلة الحضارة، ويؤمن بأن الحضارة نتاج تراب ووقت وإنسان، وأن الفكرة تلعب دور المحرك الأساسي لهذه العناصر الثلاث، حيث تعد المسألة الحضارية من أهم الأفكار التي شغلت فكر مالك بن نبي فيقول " مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة أفكار"، ويقول "كتبي كلها بعناوينها المختلفة أدرجت تحت عنوان عام هو مشكلات الحضارة، لأن المجتمع لا يعاني عندما تحل به أزمة سوى مشكلة واحدة، هي مشكلة حضارته...، فعندما يتحقق الانسجام تكون الحضارة مزدهرة، فيكون المجتمع بمثابة العقل السليم في الجسم السليم، وإن لم يتحقق هذا الانسجام تحل بالمجتمع في هذا الطور من أطوار حضارته كل المحن التي يعانيها تحت أسماء مختلفة، من استعمار، إل جهل، إلى فقر...الخ، بينما في الحقيقة كلها أعراض لمرض واحد هو فقدان الحضارة (بن نبي: 2009، 19)

وانطلاقا من أهمية الحضارة في فكر مالك بن نبي نحاول تسليط الضوء على ملامح الحضارة في فكر مالك بن نبي من خلال التطرق إلى:

- مفهوم الحضارة
- تعريف الحضارة في فكر مالك بن نبي
- عناصر الحضارة في فكر مالك بن نبي.
- الدورة الحضارية في فكر مالك بن نبي.

1- تعريف الحضارة:

أ- **لغة:** تعرف الحضارة لغة في لسان العرب لابن منظور بأنها: الإقامة في الحضر، وكان الأصمعي يقول الحضارة بالفتح.

قال القطامي: "من تمكن الحضارة أعجبته فأي رجال البادية ترانا" (منظور، 1997)

وهي بفتح الحاء وكسرها، تعني الإقامة في الحضر، وأن مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والإجتماعي في الحظر.

ويعود أصل كلمة civilisation إلى الجذر اللاتيني civites بمعنى مدني، و civis بمعنى ساكن المدينة، أو civilis بمعنى مدني أو ساكن المدينة، أو citizen وهو ما يعرف بالمواطن الروماني المتعالي على البربري، ولم يشتق منها إلا في القرن الثامن عشر مصطلح Civilization**.** (عارف، 2001)

ب- اصطلاحا:

الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، والتقاليد الخلفية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق. (العويسي، 2012)

ويعرفها ابن خلدون بأنها: تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه، من المطابخ والملابس والمباني والفرش، وسائر عوائده وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه. (خلدون، 1983)

وهي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، وسواء كانت الثمرة مادية أو معنوية، فكل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع من المجتمعات النامية أو المتخلفة، هو حضارة. (العويسي، 2012)

2- تعريف الحضارة في فكر مالك بن نبي:

ينبني مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي على اعتقاده بأن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارة، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، ولم يتعمق في في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، وانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ بأهمية الحضارة وحركتها منذ انطلاقها الأولى، يحاول

"بن نبي" إعطاء تعريف واسع للحضارة يتحدد عنده في ضرورة توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه. (نبي، شروط النهضة، 2009)

فيعرف (بن نبي) الحضارة في كتابه "آفاق جزائرية" بأنها: مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة والعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه. (بن نبي، أفاق جزائرية، 1971)

حيث وبهذا المفهوم الشامل حدد بن نبي مفهوم الحضارة، ولا تستطيع أمة من الأمم أن تخلق حضارة إلا إذا توفرت جميع هذه الشروط، الأمر الذي يمكن المجتمع أو هذه الحضارة من أن تحل، أما مجرد اقتباس المنتجات المادية من حضارة أو حضارات أخرى فإنه لا ينشىء (حضارة)، وهذا الاقتباس أو - الاستيراد- لا يعدو أن يكون تكديسا للمنتجات، أي (الأشياء) الحضارة، وليس تأسيسا أو (بناءا) لحضارة جديدة، ولهذا نادى مالك بن نبي بوجوب أن يتنقل العالم الإسلامي من (التكديس) إلى (البناء). (المناعي، 2001). وحسبه الحضارة تكون بتوفر الشروط الضرورية للفرد من أجل خلق مجتمع متحضر.

وهو ينطلق في مؤلفاته المتعددة من وحدة تحليل أساسية هي الحضارة باعتبارها النقطة البعيدة التي ينبغي أن يؤول إليها كل تغير إيجابي، حيث ناقشها من زوايا عدة من

حيث جوهرها ومبدئها وباعتبار وحدتها وعلاقتها بمنتوجاتها ومن حيث تركيبها ووظيفتها. (سعود، التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، 2006)

فهو يدعو في جل كتاباته إلى ضرورة إبداع بدائل فكرية ومناهج مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدل استيرادها كما هي من الغرب الأوروبي، ويلح على ضرورة الاستقلال الفكري في دراسة مشكلاتنا الحضارية والاجتماعية، فهو يرى أن لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، ومن أهم الخصوصيات التي ميزت نشوء الحضارة الإسلامية أن نشوءها سببه الوحي الرباني مما جعلها حضارة خالدة خلود المبادئ والتعاليم التي تحملها وتدعوا إليها، فالحضارة لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر رغم استيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها، لأن الحضارة حسب مالك ابن نبي إبداع، وليس تقليدا، فبعض القيم لا تباع ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها كثمرة جهد، والحضارة من بين هذه القيم التي لا تباع ولا تشترى. (غانية، 2013 - 2014)

ويقول "بن نبي" أن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، وهو ما يطلق عليه اسم الحضارة. (بن نبي، أفاق جزائرية، 1971)
وفي تعريف آخر لمالك بن نبي للحضارة يشبهها "بالشمس" التي تدور حول الأرض المشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر. (خليل، 1987)
وهي ذات جانبين، الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية في صورة مكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته، أي الوظيفة الحضارية. (بن نبي، المسلم في عالم الإقتصاد، 1979)
وتحقيق هذه الحضارة حسبه مرهون بحسن تكييف الإنسان للطاقات، أي إيجاد أهداف محددة وواضحة، وإيجاد الانسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر

التاريخ وبين الطاقات المتوفرة، أو التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي بما يخدم إنجاز المقاصد المحددة في الفكر، وهو الهدف الأسمى للحضارة الإنسانية.

ويعمد ابن نبي في تعريفه للحضارة بالاعتماد على منهجين: (قسوم، 1994)

1- المنهج التحليلي التركيبي: ويعطى مثال المصباح الذي نستنير به، ويتساءل متى يصح تسمية هذا المصباح بالإنتاج الحضاري؟ فلا يمكن وصفه بذلك إلا إذا كان هذا المصباح والأفكار التي صاحبت انجازه، والآدميون الذين قاموا بعملية الانجاز يمثلون جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معينة.

2- المنهج الوظيفي: ذلك أن دور الأفكار في الحضارة لا يقتصر على مجرد الزينة والزخرفة، ففي فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة مهمة. (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1987)

كما أن كلمة "حضارة " عند مالك بن نبي تعبر عن مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي "البيولوجي"، حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تولد وتنموا روحها. (بن نبي، شروط النهضة، 2009) وعادة ما تكون بإنتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر التي تدخل به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه بتجدر في محيط ثقافي أصلي، يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى. (بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1987)

حيث يقول (بن نبي): تكتسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة فإن لها حياة اجتماعية دون غاية فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة، فالحضارة تعتبر الناتج الحاصل

ضرورة عن حركة المجتمع وهي حركة شاملة في مجال الفكر والاقتصاد وفي رحاب التوازن الروحي والمادي، ومن دون هذه المسألة لن يكون المجتمع مجتمعا، وتكتسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق مع الوجهة التاريخية من لحظة انبثاق حضارة معينة، أما الجماعات الساكنة فإن لها حياة اجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة. (بن نبي، شروط النهضة، 2009، صفحة 18)

3- عناصر الحضارة عند مالك بن نبي:

إن المحلل للمنهج الذي اعتمده مالك بن نبي في تركيب الحضارة عموما، وفي المجتمع الإسلامي خصوصا، يلمس مدى استفادة بن نبي من تكوينه الهندسي في تعامله مع الأسلاك ومع المادة، وفي تكوينه الإسلامي، في صقل عقله وقلبه بما سماه بالظاهرة القرآنية، وما نتج عن ذلك لينعكس كله، في شكل منهج تحليلي تركيبي، وظيفي، وهو ما عرف عنده بالإبداع المنهجي، ممثلا في أول نظرية فلسفية، تاريخية دينية جسدتها معادلته التي تعيد إشكالية الحضارة إلى وجوب البدء لحل ثلاث مشكلات أساسية هي: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت. (قسوم، 1994، صفحة 04)

فهو يميل إلى طريقة عالم الكيمياء في عملية التحليل المؤدية إلى التركيب، وينصح العالم الإسلامي باقتباس تلك الطريقة، إن أراد لنفسه النجاح في تركيب الحضارة، ويرى أن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية:

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت

وقال إنه استخدم كلمة (تراب) بدل (مادة) في هذا السياق، تحاشيا للبس في كلمة (المادة) نظرا لتعدد مفاهيمها في باب الأخلاق والعلوم والفلسفة. (المناعي، 2001)

ولكن هذا الناتج الحضاري لا يتم تلقائيا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة، بل لا بد من وجود مركب ما، وهو المركب الحضاري الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ. (نبي، شروط النهضة، 2009، الصفحات 25-30)

فعندما يتحرك رجل الفطرة ويأخذ طريقة لكي يصبح رجل حضارة لا زاد له سوى التراب والوقت وإرادة لتلك الحركة، وهكذا لا يتاح لحضارة بدءها رأسمال إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرك، والتراب الذي يمده بقوته الزهيد حتى يحصل على هدفه، والوقت اللازم لوصوله، وكل ماعدا ذلك من قصور شامخات، وجامعات وطائرات، ليس إلا من المكتسبات، لا من العناصر الأولية. (نبي، أفاق جزائرية، 1971، صفحة 38)

ويؤكد (بن نبي) هنا على عامل الدين كمركب عام لجميع أنواع الحضارات الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة للمسيحية في الحضارة الغربية، والحضارة الإسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم وتأملاته الإلهامية في غار حراء.

ومنه فإن مشكلة الحضارة لا تحل باستيراد منتجات حضارية موجودة، ولكنها تتطلب حل ثلاث مشكلات جزئية على النحو الآتي:

- مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ.
- مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية
- الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد.

وإذن الحضارة = إنسان + تراب + وقت. (نبي، تأملات، 1987)

وكل حضارة كما يقول ابن نبي تستلزم رأسمال أولي مكون من الإنسان والتراب والوقت، فهي مركب من هذه العناصر الثلاثة الأساسية، ولا بد أن يركبها العامل الأخلاقي - أعني يحتم تماسكها- ومن دون هذا العامل يوشك أن تتمخض العملية عن كومة لا شكل لها

متقبلة، عاجزة عن أن تأخذ اتجاها، أو تحتفظ به، أو تكون لها وجهة بدلا من أن تكون كلا محددا في مبناه، وفي ما يهدف إليه. (العويسي، 2012، صفحة 389)

والمقياس العام لعملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف والسخرية حتما أن نعكس هذه القاعدة، حيث نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها. (بن نبي، شروط النهضة، 2009، صفحة 42)

1- الإنسان: يعتبر الإنسان في فكر مالك بن نبي دو أهمية كبيرة لأنه هو الذي يوجه الأشياء والأفكار والوقت والتراب، فالإنسان هو الذي يحدد القيمة الاجتماعية للمعادلة التي صاغها ابن نبي، وإن كان مالك بن نبي يتحدث عن إنسان الحضارة بصفة عامة إلا أنه يعني في هذا المقام الإنسان المسلم، ولا بد من توفر هذا الإنسان على شروط ثلاثة: (المناعي، 2001)

- أن يعرف نفسه ويعمل على تنقيتها من كل أنواع التخلف.
- أن يعرف الآخرين وأن لا يتعالى عليهم وأن لا يتجاهلهم.
- أن يعرف الآخرين بنفسه، ولكن الصورة المحببة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للاستعمار والتخلف وأصناف التقهقر.

وقد أولى مالك بن نبي عناية بالغة بالإنسان في معالجته لمشكلات الحضارة انطلاقا من قيمته ودوره في التاريخ، وباعتباره الأساس الذي من خلاله تنطلق الحضارة في مراحلها الثلاثة، حيث يكون في البداية ساكنا خامدا ثم عنصرا حضاريا فعالا، أو جزئيا محروما من كل قوة دافعة عندما تبلغ هذه الأخيرة نهايتها المحتومة، وهي مراحل متدرجة تعبر عن حركة الإنسان حينما يستغل ما بين يديه من عنصري التراب والوقت. (سعود، 2006)

والإنسان هو الذي يوظف الدين اجتماعيا فيقوم من خلاله بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم مستنبطة من النموذج المثالي، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية ، يجعل من (الوقت) الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر) وقتا اجتماعيا مقدرا (بساعات عمل)، ومن (التراب) الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غداء الإنسان في صورة استهلاك بسيط، مجالا مجهزا مكيفا تكييفا فنيا، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج، فالتاريخ يبدأ حسب مالك بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلا وشاهدا. (ميهوب، 2014)

ويرى ابن مالك أن فكرة التغيير الاجتماعي التي تبدأ من الإنسان تنتهي إلى الحضارة، وأن أول ما يجب تغييره هو " الفرد" في حالته الطبيعية التي خلق عليها، ثم يشرح (بن نبي) كيفية التعايش بين الإنسان والتراب والزمن على الصعيد الاجتماعي، فيرى أننا وجدنا في مكان معين وفي زمن معين نشاطا متآلفا من الناس والأفكار والأشياء دلنا ذلك على الحضارة قد بدأت في هذا المجال، وأن تركيبها قد تم فعلا في الأشخاص. (ميهوب، 2014، صفحة 169)

2- **التراب:** يعتبر التراب أحد المكونات الأساسية في تكوين الحضارة عند مالك بن نبي، ولقد عالجه مالك من جانبين:

- الجانب الأول: المظهر القانوني(التشريعي): ويتضمن تشريع الملكية في المجتمع
- الجانب الثاني: الجانب الفني، ويقصد به الاستخدام الفني والسيطرة الفنية التي تتيحها العلوم المختصة كعلم التربة، ويخضع تقييم التراب في فكر بن نبي لمعيار تقدم الحضارة التي تعمل على استغلاله أحسن استغلال. (بن نبي، شروط النهضة، 2009، صفحة 131)

ولقد أعطى مالك بن نبي لهذا العنصر قيمته الاجتماعية التي يستمدها من قيمة مالكيه " فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط"، ويقول في ذلك " ومن التراب كل شيء على الأرض وفي باطنها، ومعنى التراب هنا ليس المعنى المتبادر إلى الذهن، فقد تعمدت أن لا أستخدم كلمة مادة لأسباب فقلت " التراب" لأن التراب يتصل به الإنسان وبحيويته ويتصل به بصورة الملكية أي من حيث تشرع الملكية في المجتمع الذي حقق للفرد الضمانات الاجتماعية.

حيث يخضع تقييم التراب في فكر مالك بن نبي لمعيار تقدم الحضارة التي تحيطه أو تحده، والتي تعمل على استغلاله أحسن استغلال، وهذا ما حدث في الزمن الماضي والحضارة الإسلامية تعيش أوج قوتها، لكنها سرعان ما تراجعت، فتراجعت معها قيمة التراب التي أصبحت مهملة، فيقول بن نبي " ونحن حين نتكلم عن التراب لا نبحث في خصائصه وطبيعته، ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية ، وهذه القيمة مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط. (بن نبي، شروط النهضة، 2009، صفحة 139)

والتراب هنا شيء حيوي في المجتمع من حيث الشرع، وهو يتصل بصورة أخرى من ناحية عالم التراب والمعلومات التي به كالكيمياء.

3- الوقت: يقول ابن نبي عن الوقت بأنه يمر من خلال المدن فيغذي نشاطها بطاقاته الأبدية أو يذلل نموها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب وفي مجال كل فرد وهو يصير لدى البعض ثروة، وفي مجال آخر يتحول عدما ويمزق من خلاله الحياة، وهذا ما ينطبق على العالم الإسلامي الذي لا ينقصه معرفة شيء اسمه الوقت وإنما ينقصه إدراك معناه، فلا ندرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية ،

ولا تجزئته الفنية فحظ الفرد العربي الإسلامي من الساعات كحظ أي شعب متحضر، ولكن عندما يدق الناقوس مناديا الرجال والنساء والأطفال إلى جماعات العمل في البلاد المتحضرة فهنا هي المسألة المؤلمة، فالعالم الإسلامي يعرف شيئا يسمى الوقت فقط ولحد الآن لسنا نعرف فكرة الزمن الذي يتصل اتصالا وثيقا . (الخطيب، 1993)

فالوقت هو الزمن الذي بتحديده يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو على ذلك جوهر الحياة الذي لا يقدر بثمن، ولأهمية الزمن يرى مالك أن الواجب يقتضي تكييف الزمن وتحويله إلى زمن اجتماعي، بإدماجه ضمن العمليات الصناعية الاقتصادية والثقافية باعتباره ركيزة تقوم عليها سائر اطرادات هذه العمليات. (بن نبي، شروط النهضة، 2009، الصفحات 139 - 140)، وهو يدخل في اطراد الحضارة ومنتجاتها بما في ذلك الإنسان، بصفته أحد منتجاتها، فهو يشبه الزمن بنهر يعبر العالم، يمر خلال المدن، يغذي نشاطها بطاقته..أو يدلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد، بفيض من الساعات. (العويسي، 2012، صفحة 114)

ويرى بن نبي بأنه الوسيلة الضرورية للفت نظر العالم الإسلامي إلى أهمية الوقت وغرس فكرة الزمن علميا في عقل المسلم، وهي التربية " فإذا استغل الوقت ولم يضع سدى، ولم يمر كسولا في حقلنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي، وهذه هي الحضارة. (المناعي، 2001)

4- الدورة الحضارية في فكر مالك بن نبي:

يعود الفضل في بلورة وتطوير الاتجاه الحضاري بعد ابن خلدون إلى مالك بن نبي، والتي تمحورت حول تأسيس هذا الوعي الحضاري، وبناء على ثقافة التكاملية إذا ما كتب للأجيال الجديدة أن تستوعبها وتلقي عليها وتلتزم بها في تفكيرها وفي مواجهتها لتحديات البناء الحضاري، ستحدث في حياتها نقلة عميقة وشاملة عن طريق الخروج من الدوامات

المهلكة، وتحول الأفعال المعتلة إلى الأفعال الأصيلة والفعالة والمطردة التي تتراكم وتطور المكاسب والتجارب والخبرات عن طريق النهوض والتجديد الحضاري.

وقد استخلص "بن نبي" من قراءته المتعددة للتاريخ البشري وفلسفته ولتاريخ الحضارة الإسلامية أن مسيرة الأمم والجماعات تخضع لنظام دوري، وهذا في نظره الذي يجعل الأمة في فترة من فترات تاريخها الحضاري تسجل مآثر عظيمة، تبقى خالدة في سجل تاريخها وتاريخ البشرية من حولها، كما تسجل عليها فترات أخرى انتكاسات وهزائم حضارية وعمرانية وعسكرية. (غانية، 2014، صفحة 33)

حيث يقول (ابن نبي) إن كل حضارة إنسانية عرفتها البشرية مرت بثلاث أطوار: طور الميلاد، وطور الانتشار والتمدد، وطور الأفول... وعندما ينحدر منحنى الحضارة في مجتمع ما وتبدأ شمسها بالأفول تتفشى أعراض هذا المرض، فمشكلتنا إذا هي الانحطاط الحضاري... وكل ما تشهده مجتمعاتنا من فقر، وجهل، واستبداد، وغيره هي عوارض المرض وليست المرض ذاته.

فكل حضارة حسبه تقع بين حدين اثنين: الميلاد والأفول، ونحن نملك نقطتين من ذروتها باعتبارها ليست محل نزاع، والمنحنى البياني يبدأ بالضرورة من الأولى في خط صاعد ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل، أما الطور الانتقالي الذي يتوسط هذين الخطين في طور وسيط هو طور الأوج.

ولكي يخرج المسلمون مما عليه من سبات حضاري لا بد أن يستوعبوا سنن الله الثابتة في الكون التي يخضع لها الأفراد والجماعات، لأنهم بهذا الاستيعاب فقط يمكن أن تكون حركتهم في التاريخ حركة ثابتة وهادفة، وبدل أن تبقى كما هي عليه الآن حركة عشوائية تحكمها الصدف وتوجهها الأهواء الفردية والنزوات الشخصية. (بن نبي، شروط النهضة، 2009، صفحة 20)

وقد شرح ابن نبي في كتابه "ميلاد مجتمع" المراحل الثلاثة التي تمر بها الحضارة الإسلامية التي تصلح أن تكون نموذجا للحضارات الأخرى، ويعتقد أن وسائل المعرفة التي هي الحس والعقل والقلب متكاملة، ولا يستطيع أي إنسان الوصول إلى الحقيقة المطلقة إلا إذا استعمل هذه الوسائل مجتمعة ومتكاملة ودون عزل إحداها عن الأخرى، ولا يرضى مالك بن نبي بهيمنة العقل والروح على الغريزة، لأن ذلك يؤدي إلى توقف المد الحضاري عن وثبته، وقد تفلت من هذا القانون حضارة من الحضارات، والفكر الأوروبي ذاته الذي تشكل في جو العقلانية الفرنسية والجمالية الايطالية كان يسارع إلى الرجوع لأصله في كل مرة تنتابه فيها استثارة أو تحد وافد من الخارج. (ميهوب، 2014، صفحة 134)، وقد جاءت هذه المراحل وفق التسلسل الآتي:

مرحلة الروح: تعتبر مرحلة الروح تمثيلا أوليا لإشعاع الفكرة الدينية التي تتمكن من النفوس وتبنيها بناءا مرصوصا كما كان ذلك في الوقت الذي بدأت في غار حراء وكان تأثيرها فعالا على النفوس، فكنا نلاحظ أنه بمجرد ما تنزل آيات الخمر فإن الصحابة ينتهون عن شربها، حيث مارس القرآن الكريم في هذه المرحلة نشاطه في النفوس وجعلها تلبي النداء في كل لحظة والتي امتدت ما بين نزول القرآن المكي والقرآن المدني. (الخطيب، 1993، 95)، ولهذا يطلق ابن نبي على هذه المرحلة ب "مرحلة الحس" حيث يعتبرها مرحلة فطرية، تتم فيها إخضاع الغرائز لعملية التكييف والاشتراط ليتم تنظيمها وفق تطور المجتمع الناشئ.

مرحلة العقل: ويطلق عليها بمرحلة العقل لأن جميع الخصائص والملكات تكون تحت سيطرة العقل ، ويواصل المجتمع تطوره وتكتمل شبكات علاقاته الاجتماعية، فتشرع الخصائص الغرائزية في التشكل والظهور من جديد بقدر ضعف وارتخاء الجانب الروحي، وهنا يقول (بن نبي) وفي الوقت نفسه يواصل المجتمع الذي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور تطوره، وتكتمل شبكة روابطه الداخلية، بقدر امتداد إشعاع هذه الفكرة

في العالم، فتنشأ المشاكل المحسومة لهذا المجتمع الوليد نتيجة توسعه، كما تتولد ضرورات جديدة نتيجة اكتماله، وحتى تستطيع حضارة تلبية هذه المقاييس المستجدة تسلك منعطفا جديدا، فإما يتطابق مع النهضة كما نراها بالنسبة إلى الدورة الأوروبية، وإما أن يتطابق مع استيلاء الأمويين على الحكم كما هو شأن الدورة الإسلامية، وفي كلتا الحالتين فإن المنعطف هو منعطف العقل. (ميهوب، 2014، صفحة 135)

مرحلة الغريزة: ويطلق عليها " مرحلة القلب" وتصور هذه المرحلة بنهاية الدورة الحضارية، فعندما يبلغ الفرد تمامه من خلال ضوابط الفكرة الدينية يبدأ الطور الثالث والذي تنتهي فيه الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية وتعجز عن القيام بمهمتها في مجتمع منحل حيث يفقد كل ما يربط أواصره، وهي الطور الحضاري الذي ينبأ عن مجتمع سماه مالك بن نبي بمجتمع ما بعد الحضارة.

5- خاتمة:

ينطلق مالك بن نبي في الحضارة من نظرة متوازنة متعادلة، تجمع بين الجانب المادي والروحي، وكذلك بين الكم والكيف، ويشير إلى أن هناك عناصر ضرورية تتشكل منها كل الحضارات تتمثل في(الإنسان، التراب، الوقت)، وأولى عناية بالغة بالإنسان، ونادى بضرورة بضرورته وضرورة تفعيله لأنه هو الذي يعول عليه في الانتقال من التخلف والتبعية إلى التطور والقيادة الحضارية.

6- قائمة المراجع:

الطاهر سعود. (2006). *التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي*. بيروت: دار الهادي.

الطاهر سعود. (2006). *التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي*. بيروت: دار الهادي.

العايب ميهوب. (2013 - 2014). *الفكر التربوي عند مالك بن نبي*. الحزائر: جامعة بسكرة.

جمال الدين ابن منظور. (1997). *لسان العرب*. بيروت: دار الفكر.

سليمان الخطيب. (1993). *فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي* (المجلد ط1). بيروت: دار النشر.

شوقي أبو خليل. (1987). *الحضارة العربية الإسلامية*. طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية.

شيبي غانية. (2013 - 2014). *مالك بن نبي ورؤيته في الإصلاح الاجتماعي*. جامعة أبو بكر بلقايد، الجزائر: مذكرة مكملة لنيل شهادة الليسانس في الادب العربي.

عائشة يوسف المناعي. (2001). مظاهر التحديد في فكر مالك بن نبي.

عبد الرحمن ابن خلدون. (1983). *مقدمة ابن خلدون* (المجلد ط4). بيروت: دار الكتب العلمية.

عبد الرزاق قسوم. (1994). إشكالية الحضارة في فكر مالك بن نبي. *مجلة الموافقات*، 04.

عبد الله أحمد العويسي. (2012). *مالك بن نبي، حياته وفكره*. (المجلد ط1). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

مالك بن نبي. (1971). *أفاق جزائرية* (المجلد ط2). بيروت.

مالك بن نبي. (1979). *المسلم في عالم الإقتصاد*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1987). *تأملات*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1987). *مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (2009). *شروط النهضة*. سوريا.

مالك بن نبي. (2009). *شروط النهضة* (المجلد ط9). سوريا: دار الفكر.

محمد عارف. (2001). *الثقافة، الحضارة، المدينة، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم*. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.